جامعة قطر

مكتبة البنين
قسم الدوريات

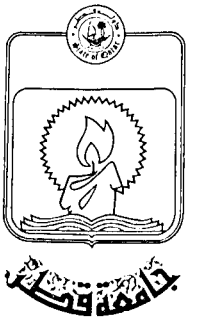

حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

العدد العاشر ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م

غير مصرح ب... المكتبة

كيف نوجه العلوم نحو الإسلام ؟
(الإطار والهدف)

الأستاذ الدكتور

محمد عبد الستار نصار

الأستاذ بقسم العقيدة والأديان

يحاول هذا البحث تحديد الاطار الذي ينبغي أن يكون عليه منهج البحث في العلوم التجريبية والانسانية في نطاق الفكر الاسلامي، ويكشف عن مدى القصور في النتائج التي توصلت اليها مناهج انحرف بها أصحابها عن الطريق السوى، فظهر الانسان في ظلها مسخاً مشوهاً، لا دين له، ولايملك قيماً تضبط سلوكه، ثم ينتهي إلى بيان الأهداف التي تتغياها قضية التوجيه الاسلامي للعلوم والمعارف، في بيئة تملك مقومات المنهج العلمي الموضوعي الصحيح الذي يسعد الانسان في ظله.

■ تمهيـــــد ■

* عندما ظهرت فكـرة « إسلامية المعرفة » تنادى بعض المتسرعين، بـأن من ظهرت لديهم تلك الفكرة، أناس واهمون، لأن الاسلام عبارة عـن حقائق دينية، وأما العلم فحقيقة موضوعية، وقد يكون مرجع ذلك لدى هؤلاء المتسرعين، تلك الصورة العامة للدين، التي لا تـزال لاصقة بـأذهانهم، والتـي تولى كبرهـا آباء الكنيسـة في العصور الـوسطى المسيحية، يوم حجروا على العلـم، وردوا كل منجزاته، وفرضوا عليه وصـاية، كانت أشبه بالقيد الذي غل تقدمه وأطراده.

* والحق أن الاسلام دين يخالف تماما الدين الذي فهمـه هؤلاء، من حيث علاقته بالكون والانسان والحيـاة، فالكـون هو « خلق الله » سبحـانه وتعالى، ومظهـر قدرتـه وإرادته وعلمه وحكمته، والانسان هو الكائن المستخلف عن الله في كونه هذا، والمسخر له كل مافي السموات والأرض جميعـاً منه، والحياة هي الآنات الـزمانية التي يبرز فيهـا نشاطه لاستغلال طاقات الكون المادية والروحية.

* وصيرورة هذا الكـون نحو غاياتـه وأهدافه ليست أمـراً عشوائياً أو مصادفيـاً في منظور الاسلام، وإنما يمضى إلى ذلك حسب خطة مقدرة، وبسنن محسوبة ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(١) ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾(٢) ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ ﴾(٣) .. ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾(٤) .

* واذا كانت هـذه الآيات التي سقناها، تدلنـا على حقيقة باهرة، يشهد الواقـع بصدقها، وهي أن الكون تحكمـه في صيرورته سنن وقوانين، في سبيل سعيه إلى غـايته، وأن تلك السنن والقوانين من صنع خالق الكون، فإنا نستنتج - تلقائياً - أن اكتشاف تلك السنن وهذه القوانين، إنما يرجع إلى طبيعة هذا الدين وحقيقته، ولا يتصادم معه أبداً، كما كان الحال بين العلم والكنيسـة في أوروبا في العصور الوسطـى، بل يصبح العلم جـزءاً من حقيقته وبنائه العام.

---

١ - سـورة طـه : آيـة ٤٩ - ٥٠.
٢ - سـورة القمـر : آيـة ٤٩.
٣ - سـورة المؤمنـون : ١١٥ - ١١٦.
٤ - سـورة يـس : الآيتـان ٣٩ - ٤٠.

* وتشير بعض آيات القرآن الكريم إلى ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الانسان والكون بكل عناصره، وهذه العلاقة تتناسب مع كون «الانسان» مسخراً له هذا الكون، وأن ذلك لا يتأبى على هذا التسخير، بل هو كالدابة الذلول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾(٥) والنظر العميق إلى الآية يعطينا :

أ) طواعية الأرض بكل ما فيها من عناصر ومعادن وطاقات، سواء أكان ذلك في باطنها أم على ظهرها، لاستغلال الانسان وسعيه، استغلالاً وسعياً يكفي بهما ضرورياته وحاجاته وتحسيناته بحسب مقدرته وطاقته.

ب) أن هذا الاستغلال على الوجه الأمثل لا يتأتى إلا بعد أن يعرف الانسان كيف يحصل له ذلك، ولا يكون إلا بالتعامل مع عناصرها وفق القوانين والسنن التي تحكمها، وهذا بالضرورة يحمل الانسان معرفة هذه القوانين معرفة صحيحة، وتطرد درجة الاستغلال مع درجة المعرفة لتلك القوانين دقة أو سطحية.

جـ) أن الأمر لم يقف عند مجرد العرض ولفت الأنظار إلى حقيقة ما يستغل، بل جاء على سبيل الطلب والأمر، وهذا في حد ذاته يرينا مدى الترابط الوثيق بين الانسان والكون، وكيفية التعامل معه.

د) يضاف إلى ما تقدم حقيقة باهرة، لم نرها في ظل أي توجه آخر سوى الإسلام لاستغلال طاقات الحياة، تلك الحقيقة التي تظهر أن سعي الانسان ونشاطه في الحياة ينبغي أن يكون مرتبطاً بواهب الحياة نفسها، لا أن يكون سعياً يستغل الموهوب ولا يذكر الواهب. إن تلك الآية توجهنا إلى كون معلوم، تحكمه قوانين ينبغي أن تعرف حتى نحسن استغلاله وفي نفس الوقت ترشدنا إلى خالق هذا الكون، مقنن تلك القوانين.

* وما يقال عن الأرض يقال - أيضاً - عن السموات، بكل أفلاكها وأجرامها، ماظهر لنا منها ومادق، إنها خاضعة لقهر الله وسلطانه، لأنها أثره، ومجلى عظمته وقدرته، وقوانينها هي سننه التي تسيرها نحو غاياتها ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(٦) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

(٥) سورة الملك : آية ١٥.

(٦) سورة فصلت : آية ١٢.

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

* وليس في وسعنا أن نسوق كل الآيات التي جاءت في هذا السبيل أو أكثرها، فإن حسبنا ما يشير إلى ما نريد، وهو أن الكون كله خاضع لسلطان الله وقهره، وأن القوانين التي تحكمه، إنما هي من تقدير خالقه وموجده، وأنه مسخر لخدمة الانسان، وأن عليه اكتشاف هذه القوانين حتى يطوع عناصره لتقدمه ورقيه، في إطار عبوديته لله رب العالمين، وبهذا يستأهل أن يمثل عن الله دور الخلافة عنه في أرضه.

* من ثم نرى أن «العلم» في المنظور الاسلامي ليس أمراً خارجاً عن حقيقة هذا «الدين» فضلاً عن أن يكون انفجاراً معرفياً في وجهه(٨)، يأخذ سلطانه في تفسير هذ الكون وعناصره، بل إنه منبثق من صميمه. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يختلف أو يضاد المنبثق ما انبثق عنه ؟.

* إن العلم في الاسلام - بناء على ما تقدم - يكون ديناً، وهنا تسقط تلك الثنائية التي أوحت بشيء غير قليل من التصادم بين الدين بمفهومه "العلماني" وبين العلم.

* كيف نشأ ذلك التصادم المزعوم ؟

* لا نريد أن نوغل كثيراً في حقب التاريخ حتى نضع أيدينا على بداية الصراع والتصادم بين الدين (بالمفهوم العام) وبين العلم، فذلك أمر غير ممكن من الناحية الواقعية، وإنما يكفينا أن نشير إلى أن المحاولة التي قام بها «ديمقريطس» الفيلسوف المادي اليوناني الذي ولد في القرن الخامس قبل الميلاد تجاه "الدين" والتي قامت على التصور المادي للكون والحياة، كانت البذرة التي اختمرت في رحم التاريخ حتى اذا ما وجدت لها من الأسباب والمبررات ما يجعلها تكشف عن نفسها، كانت تظهر بشكل سافر براق أحياناً، أو بوجه يعلوه الحياء في أوقات أخرى، ولعل من أبرز الأسباب والمبررات التي هيأت ظهورها في العصور الوسطى وما تلاها حتى مطالع هذا القرن، وجود نوعين من الدين، لم يستطيعا - إطلاقاً - إحداث توازن بين مطالب الانسان، حتى غدا في ظلهما فاقداً لكل قيمه العليا، التي أهلته - بفضل الدين الصحيح - ليكون خليفة عن الله في

---

(٧) سورة الجاثية : آية ١٣.

(٨) كما يزعم صاحب مدرسة الالحاد العلمي في القرن الماضي «جوليان هكسلي» في كتابه : الانسان يقوم وحده.

أرضه، وهذا الدينان هما :

١ - الديـــــن اللاهـــــوتي :

٢ - الديـــــن الســـــياسي :

فأما الأول : فهو ذلك الدين الذي لم يكن - أبداً - معبراً عن حقيقة الاتصال بين السماء والأرض، كي يسعد بـه "الانسان" من حيث هـو في دنياه وأخراه، كما هو شـأن الأديان السماوية في صورتها النقية، وإنما كـان تعبيراً عن مطالب طائفة نصبـت نفسها حارسة لهذا الكـون، وضعت نفسهـا - بكـل ما أوتيـت - مكـان الإله الحق، لا سلطـان إلا لها، ولا يستقر من الحق إلا مـا تراه. ولا يستفاد من العلوم ومنجزاتها إلا مـن خلال تصوراتها... ترى!!! في هذا الجو المشحون بكل عوامل التسلـط ماذا يمكن للعلم وأدواته ومنجزاته أن يقـول ؟ وماذا عسـاه أن يفعل ؟ إن أسـاطين العلم والفكـر وسدنتها لـن يقولا إلا كلمـة واحدة هـي : أن دينا هـذا شأنـه لا يمكن أن ينهـض بالحيـاة ومطالبهـا المتعددة. وتكـون النتيجة الطبيعية لهذا القول، هي استدبار هذا الديـن، والسعي نحو ترقية الحياة من خلال آفاق العلـم ومنجزاتـه بعيداً عـن صورة هـذا الديـن، الذي يشكـل أكبر العقبات في هـذا المضمار، لقد عبر عـن هذه الحقيقـة « لينين » حين قال : « نحـن نقول بيقين إننـا لانؤمـن بالله، نحن نعلم تماماً أن القساوسة والاقطـاعيين، والبورجوازيين ينطقون باسم الله حتى يتمموا تحقيق مصالحهم التي تقوم على السلب والنهب [٩] ».

وأما الثاني : فهو ذلك الذي اتخذ سنداً وتبريراً للسلطات الحاكمة، حين كان يعوز تلك السلطـات روحاً تـدعـى استمدادهـا مـن السماء، حتى رأينـا على سـدة الحكم في بعـض أحقاب التاريخ حكاماً حلوا محل الآلهة، يحملـون بأيديهم السيف والذهب معاً، أولهما لمن عصى والثاني لم أطـاع، هذا اذا أحسنا بهم الظن، وإلا فهنـاك صور شتى للنظم السيـاسية المتسلطة، التي سارت إلى غايتها، فوق كثير من الأشلاء والجماجم، وسبحت في بحار من دم المحكومين، بزعم أن حقوقهم ومطالبهم مـن قبيل المقدسات التي لاتمس، وكأن لسان حالهم كاد ينطق بما نطق به «فرعون» أمام قومه ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[١٠] ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[١١].

---

(٩) مجموعة كتابات « لينين » جـ٧، وانظر : محمد تقي الأميني الندوى : عصر الالحاد، ص١٧٧ - الترجمة العربية - القاهرة، ١٩٨٤.

(١٠) من الآيـة ٢٤ من سـورة النازعـات.

(١١) سـورة القـصص من الآيـة ٣٨.

* أمام هذه وتلك كصورتين للدين لابد من رد فعل على مستويين :
١ - المستوى الاجتماعي :
٢ - المستوى العلمي والفكري :

فأما على المستوى الأول : فقد رأينا الصراع الطبقي بكل مظاهره، حتى غدت المجتمعات في ظله، قلقة حائرة، ومصائر أبنائها تتوزع بين الفناء أو العزلة أو الأمراض النفسية القاتلة.

وأما على المستوى العلمي والفكري : فقد ظهرت نظريات لعلماء ومفكرين عدها أصحابها انفجاراً هائلاً في وجه الدين، بل إن بعضها لم يقف عند رفض الدين بناء على صورتيه القاتمتين - كما أسلفنا - وإنما حاولت أن تثبت أن « الدين » لم يكن في يوم من الأيام حقيقة خارجية، يوجد صداها في وجدان البشر، بل كان خدعة اخترعها أقطاب متعددون حتى ينفذوا في ظله إلى ما يريدون : الكنيسة - الاقطاع - النبلاء - الحكام... الخ.

● *نماذج من النظريات :*

* يعنينا سلفاً أن نبين أن النظريات الالحادية التي قامت في وجه « الدين » لم تكن مدركة للأبعاد الحقيقية له بمعناه الصحيح، وهو "الوضع الالهي الذي يسوق البشر باختيارهم إلى ما يصلحهم في الحال والمآل" على حد التعريف الاسلامي للدين، ويستدعي هذا الموقف - ضرورة - أن تكون النتائج التي توصلوا إليها، غير منطبقة على الصورة الصحيحة له، اللهم إلا بعض النظريات التي جاءت كنوع من الجهد العلمي، أو كرد فعل للروح الخائرة التي أحدثتها الصورتين القاتمتين للدين كما أسلفنا. وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف الانجليزي « فرنسيس بيكون» "إن التحقيق القليل يوصل الإنسان إلى الدهرية، ولكن التحقيق العميق يعود به إلى الايمان، والدهرية تذل الانسان، فإن فطرته الروحية تحتاج إلى العون والمساعدة، حتى لا تهوى به فطرته الجسمية إلى حضيض المذلة، والانسان بتعلقه بالذات الأعلى يعلو ويشرف ويكرم [١٢] ".

---

(١٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، جـ١، ص ٢٣٥، وانظر : محمد تقي الأميني : عصر الإلحاد، ص ٨٦، مرجع سابق.

* كما يهمنا - أيضاً - أن نشير إلى أن بعض النظريات التي سنختارها، لن نتعرض لها من حيث تفصيلاتها وتفريعاتها، فلسنا بصدد التفصيل والتفريع، وانما يكفينا أن نشير إلى قيمتها العلمية، وإلى واقع الحياة الانسانية عند التعامل معها كنظرية صحيحة. من هذه النظريات :

أولاً : نظـــــرية التطـــــور :

التي قال بها « دارون» في نطاق العلوم الحيوية (البيولوجيا).

ثانياً : نظـــــرية الغريـــــزة :

التي قال بها « مكدوجل» في مجال علم النفس.

ثالثاً : نظـــــرية الجـــــنس :

وقد قال بها «فرويد» في مجال التحليل النفسي.

رابعاً : نظـــــرية الاشـــــتراكية :

وقد قال بها «كارل ماركس» في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

١ - نظريـــــة التطـــــور :

* مثلث هذه النظرية : تنازع البقاء - الانتخاب الطبيعي - البقاء للأصلح - والتبريرات العلمية - في نظر صاحبها ومدرسته - لها هي :

أولاً : أن دراسة الحيوانات تؤكد أنها تضم أنواعاً عليا وأخرى دنيا، ابتداء من حيوانات ذات خلية واحدة إلى أخرى تتألف من عدة خلايا، قد تبلغ الملايين. وهذه الحيوانات تختلف من حيث صلاحيتها وكفاءتها ودرجة رقيها.

ثانياً : هذه المشاهدة الظاهرة للتفاوت أيدتها الحفريات، حيث أثبتت الترتيب الارتقائي بحسب الزمن، فالحيوانات التي وجدت على ظهر الأرض، قبل ملايين السنين، يحتفظ باطنها بعظامها المتحجرة، نتيجة للعمل الطبيعي، والبحث في هذه العظام أثبت أن حيوانات العصر القديم كانت بسيطة التركيب، ثم ظهرت أنواع أخرى أرقى وأكثر تعقيداً على مر الزمن، ومعنى هذا أن كل الأنواع لم تظهر للوجود دفعة واحدة.

ثالثاً : النظام الجسماني لكل الحيوانات متشابه، بالرغم من اختلافها النوعي، وبناء عليه

فمن المحتمل أن تكون كل الكائنات الحية منتمية إلى أسرة واحدة، وأن الجد الأعلى لها ليس إلا واحداً.

رابعاً : إن خروج نوع من نوع آخر يتحقق حين نرى أن أولاد أم واحدة من أي حيوان لا يولدون متشابهين، بل توجد بينهم فروق، وهذه الفروق تتطور في الأجيال التالية.

* وهذا التبرير الأخير عده أنصار هذه النظرية أقوى الأدلة على صدقها، إذ أن حصولنا على شواهد تثبت الاختلاف والفروق بين الفروع مع وحدة أصلها لقرينة منطقية لصحة الدعوى، وهذا كاف في الاستدلال، حتى مع عدم التمكن من تجربة الدعوى أو آثارها مباشرة.

* إن نظرة فاحصة إلى طريقة استدلالهم هذه، ترينا أن العلاقة بين الدعوى ودليلها علاقة منطقية، وليست علاقة تجريبية، ناتجة عن المشاهدة والملاحظة، الأمر الذي جعل بعض الباحثين - هو السير آرثر كيث - يصف هذه النظرية بأنها "العقيدة الأساسية في المذهب العقلي" ومعنى أنها عقيدة أنها قائمة على تفسير بدون برهان، وليست حقيقة علمية(١٣).

* ثم إن الملاحظ على هذه النظرية، أن التطور من حال إلى حال - صعوداً وهبوطاً كما هو شأنها - مسألة ميكانيكية بحتة، لا تحكمه غاية، ولا يسعى نحو تحقيق خطة مرسومة من خارج الكائن الحي، وهذا نوع من التحكم باسم العلم. وقد انتهى بعض الباحثين المحدثين - أمثال: وايت هيد وهولدن وسوليفان - إلى أن نظرية الارتقاء الطبيعي مليئة بالفجوات عندما تدرس بالتفصيل، إننا نحتاج إلى مجهود عظيم حتى نستطيع الاعتماد - ولو مؤقتاً - بأن جميع التطورات التي حدثت للكائنات الحية على ظهر هذا الكوكب، جاءت نتيجة لتغيرات عشوائية وللصراع من أجل البقاء. إن النظرية لا تفسر - ولو من جانب بعيد - أكثر الحقائق وضوحاً فيما يتعلق بالعملية كلها، أي اتجاه الكائنات الحية نحو الارتقاء، فلو أن مجرد البقاء كان المطلب الوحيد، فإن نوعاً من الحياة البدائية يبدو لنا كافياً ليفي بالغرض.

* وينتهي هؤلاء وكثير غيرهم في يوم الناس هذا إلى هذه النتيجة الواضحة: إن نظرية

---

(١٣) وحيد الدين خان: الدين في مواجهة العلم، ص ١٢، الترجمة العربية ط٣، القاهرة، ١٩٧٤.

الانتخاب الطبيعي، على فرض التسليم بها، لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء وجود علة أو قوة ما، تسوق الحياة والأحياء في سلم التطور نحو الأحسن والأرقى وإ غدت لغزاً مبهماً، ولعل هذا هو الذي دفع بعض العلماء المهتمين بها إلى البحث عن بعض المفاتيح التي تجعلها مقبولة، مثل : القوة الحيوية أو قوة التحقق أو الروح، لكنهم لم ولن ينجحوا في تعريف هذه المصطلحات وتحديد مضامينها، بحيث يمكن استخدامها في الأغراض العلمية، وبقيت هذه المصطلحات شاهدا على أن المفاهيم الأساسية الحاضرة لعلم الحياة غير كافية(١٤).

* إن انعطاف علماء الأحياء المعاصرين نحو إيجاد مفتاح تبرر به عملية التطور، حتى تكون مقبولة، هو في حد ذاته نقض للنظرية من أساسها، لأنها تفترض أن سعى الأحياء نحو الأفضل والأمثل انما هو عملية ميكانيكية بحتة، إذ لو كانت تقر مبدأ الغائية أو الخطة المرسومة من خارج الكون، لما أخذت مثل تلك الشهرة التي أخذتها، لأنها ستكون - حينئذ - أمراً طبيعياً، والأمور الطبيعية غالباً، لا تحدث مثل هذا الدوى الهائل الذي كان لها.

* إننا في المنظور الأسلامي - وهذه هي الحقيقة، وعلى العلم أن يسعى بكل جهده نحو استيحائها حتى يتثبت منها - نرى ما قرره قرآننا العظيم ، أن الله هو الذي خلق فسوى، وأنه قدر فهدى، وأنه المبدأ والغاية لكل الكائنات، وأن سعى الأحياء نحو غايتها، إنما يتم حسب قوانينه الفاعلة، لأنه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

* وإذا كانت هذه الدراسة ليست إلا إسهاماً متواضعاً في سبيل تأصيل منهج جديد، نتناول من خلاله التوجه نحو دراسة وتدريس العلوم بروح جديدة، تتجاوز الروح السائدة حتى يومنا هذا لدى كثير من باحثينا، تلك التي تحيا في محراب الفكر الغربي، وما أفرزته عقلية علمائه، فإن نقطة البدء في هذا السبيل إنما تكمن في :

أولاً : إعادة النظر فيما حصلنا من العلوم التي أفرزتها عقليات لم تتمتع بالرصانة العلمية، في ضوء المنجزات اللاحقة لتلك العلوم، والتي تمخضت عنها عقول علمية محايدة، وقد اخترنا نظرية "الارتقاء العضوي" مثلاً لذلك.

---

(١٤) د. عماد الدين خليل : العلم في مواجهة المادية، ص١٤-١٥، ط ثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧. وهذا الكتاب تلخيص لبعض فصول كتاب "حدود العلم" لسوليفان. ويقال ان "موريس بوكاي" له بحث بالفرنسية قيد الترجمة يرد فيه على "نظرية التطور" عنوانه (أيها الانسان : من أين جئت ؟) ذكر ذلك الدكتور عبد الحليم عويس، مراجع كتاب : "عصر الإلحاد"، لمحمد تقي الأميني، ص١٢١، تعليق.

ثانياً : أن يعبر توجهنا نحو دراسة وتدريس هذه العلوم عن بيئتنا، تلك البيئة التي ينبغي أن يتغلغل فيها الايمان الذي لا يقبل الاهتزاز، بأن هذا الكون خاضع في خلقه واستمراره وحفظه لقوانين وضعها خالقه، وهو الله رب العالمين.

ثالثاً : البحث الدائب والمستمر - كل في مجاله - المنطلق أساساً من الاسلام كدين يدعو إلى العلم والمعرفة، حتى نصل إلى نتائج حاسمة، ترينا مدى التطابق بين آيات الله سبحانه وتعالى المسطورة في كتابه العظيم "القرآن الكريم" وبين آياته المنثورة في كونه الرحب الفسيح.

وهذا الذي أقوله يقتضي :

أ) الاقرار المؤقت بكل منجزات العلم حتى تغدو تلك المنجزات حقائق لا تقبل النقض.

ب) اطراح تلك الثنائية التي أفرزها المنهج الغربي في تناوله للعلوم، للأسباب التي سقناها من قبل.

جـ) التأكيد المنهجي لجعل العلم سبيلاً للايمان الراسخ في ضوء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (١٥).

إذ أن هاتين الآيتين يبين منهما - وبطريقة منطقية - أن خشية الله سبحانه، وتوقيره اللائق بجلاله، إنما ينساب في كيان "العلماء" بطريقة تميز إيمانهم عن إيمان من سواهم، حتى لتبدو الخشية وكأنها مقصورة عليهم، وورود هذا الوصف "العلماء" بعد أن ذكرت الآيتان كثيراً من الظواهر الكونية المختلفة في طبائعها وألوانها، إنما يوحي بأن المراد به كل ما يتناول تلك الظواهر دراسة وتحقيقاً، سعياً وراء معرفة بارئها ومنشئها والمسيطر عليها، الذي وهبها، وأوضح السبيل إلى كيفية استغلالها، ثم في النهاية ماذا ينبغي أن يكون من قبل من وهبت له، في صور الشكر بمعناه الواسع، والذي تكون "الخشية" أحد مظاهره المتميزة.

٢ - نظرية الغريزة :

* بين هذه النظرية وسابقتها - نظرية التطور - وشائج قربى، إذ تقرر: أن الجبلات أو

---

(١٥) سورة فاطر : الآيتان ٢٧ ، ٢٨.

الغرائز التي تعمل في فطرة "الانسان" هي نفسها التي توجد في "الحيوان" وهي قائمة على أساس أن الانسان صورة متطورة للحيوان، والمماثلة بين غرائزهما متحققة، وفي هذا يقول "ويليم جيمس" تعبيراً عن رأى "مكدوجل" «إن الانسان حيوان مقلد، وبناء على هذه الخاصية يتوقف رقيه المدنى» (١٦).

* ويستدل "مكدوجل" ومن تابعه على صحة نظريته، بأن التماثل بين الانسان والحيوان متحقق-كما ذكرنا- في الأفعال الغريزية، تلك التي تصنف إلى :

١ - أفعال تتعلق بحماية ذات الإنسان وشخصه.

٢ - أفعال تتعلق بحصوله على الغذاء.

٣ - أفعال تتعلق ببقاء النسل.

٤ - أفعال تتعلق بالممارسات الجنسية.

* فهذه الأفعال من حيث الدافع إليها - الغريزة - لا تختلف من الإنسان إلى الحيوان في أصلها، وإنما الخلاف في أمر عرضي هو "كيفية الاشباع" وفق استشارات معينة، للحصول على الإشباع لجبلاته الطبيعية.

* إنا نستطيع أن نفترض - كما يقول "مكدوجل" أن الإنسان الطبيعي كان يعيش حياة "الاستثارة" حين لم يكن يتكلم، قبل أن ترفعه اللغة والتقاليد الاجتماعية، من صعيد المستوى الحيواني، إلى الصعيد الأعلى، ويغيب في هذه الحياة كل من العقل والضمير والمبادىء والواجبات، من ثم تكون حياة الإنسان من النوع الذي يخضع للاستثارة الغريزية، شأنه شأن الحيوانات الثديية، وكل ما هنالك من فروق، إنما ينحصر في أسلوب حياتها، حيث يوجد في الانسان نوع من التبصر بالعواقب والتنظيم والانضباط، أي في كيفية "الاشباع" كما ذكرنا آنفاً.

* وتنتهي "النظرية" لدى أصحابها إلى نتيجة حتمية هي : أن الانسان ليس لديه عواطف خلقية طبيعية، مثل الحيوان تماما، بل تكتسب عن طريق الخبرة والتعليم والوراثة، من ثم كانت نظريات فلاسفة الأخلاق المثاليين في رأي "مكدوجل" عن العواطف والفضائل الخلقية مجرد كلام سودوا به صفحات كتبهم، حيث لم ينجحوا في إلقاء الضوء الكافي عليها، لجهلهم بالنفسيات، وبسبب مصطلحاتهم العامية السخيفة. (١٧)

---

(١٦) عصر الالحاد، ص ١٤٥، مرجع سبق ذكره.

(١٧) نفس المرجع، ص ١٤٥.

بل إنه أوغل في الاستخفاف بالمبادىء الخلقية، فقال في عبارة ملؤها السخرية والهزء : " نحن نأسف بل ونعترض، لأن هذه الكلمة - أي الأخلاق - تستعمل لستر التشابه الجوهري بين سلوك الإنسان والحيوان " (١٨).

* موقف هذه النظرية من الدين :

* وكنتيجة طبيعية لحقيقة الإنسان وعلاقته بالحيوان يكون الدين في صميم هذه النظرية أمراً طارئاً على الانسان، وليس غريزة فطرية فيه، تزكيها الحقائق الخارجية التي تأتي بها الأديان الراقية - والاسلام هو صورتها الحقيقية - بل هو من اختراع الانسان نفسه، وبتأثير من العواطف التي تشكل الجزء الأكبر في الحياة الدينية.
* وتنشأ المعاني الدينية التي تعبر عنها الألفاظ الآتية : التقديس - الرهبة - الحيرة، من تلك العواطف، فالتقديس مركب من الحيرة والعجز، والرهبة مركبة من التقديس والخوف، والحيرة مركبة من الرهبة والعواطف الراقية.
* إن الدين - هنا - قد ظهر نتيجة للتطور التدريجي لأوهام الإنسان وأفكاره ومعتقداته، وهو يؤمن بخالق لهذا الكون، ولكن على نحو مغاير تماما لما في الفطر السليمة، وماجاءت به الأديان الصحيحة، إنه صدى لتطور فكر الإنسان ورقيه، وليس حقيقة خارجية موضوعية، والعبادات والطقوس والممارسات التي تؤدي، إنما وقعت من الإنسان كرد فعل لما شاهده من حوله من النظام المدهش والمناظر الرهيبة، الأمر الذي ولد في نفسه عواطف الحيرة والخوف، فكانت هذه العبادة بمثابة السلام النفسي الذي يقدمه إرضاء لهذه العناصر المرهبة بالتضرع والتملق (١٩).

* الإنسان في ظل هذه النظرية :

* عند النظر الدقيق لأية نظرية تتصل بالإنسان، ينبغي أن نتحاكم معها إلى ميزان قسط، ولست أرى أدق ولا أعدل من ميزان نحكم في ضوئه على الانسان من "خالق الانسان" إنه في اعتبار هذا الميزان "المخلوق المكرم"، الذي جعله خالقه خليفته في أرضه وأسجد له ملائكته، ونفخ فيه من روحه واستنطقه في عالم الذر حتى شهد بأن الله ربه، أي معبوده الحق، كما هو بارئه ومنشئه، كما سخر له كل ما في السموات والأرض

---

(١٨) نفس المرجع، ص ١٤٦، نقلاً عن أسس علم النفس لمكدوجل.
(١٩) نفس المرجع، ص ١٤٧.

جميعاً منه، وأرسل إليه الرسل، وأنزل معهم الكتب، مبشرين ومنذرين بها، ليقوم الناس بالقسط، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة، وحتى لا تكون له حجة بعد الرسل.

* ولا يضيرنا أن يكون هذا التقرير عن طبيعة الانسان في ظل الاسلام، متصادماً مع معطيات هذه النظرية وغيرها، تلك التي تنظر إليه على أنه كائن مادي فقط. طالما أن هذا هو الواقع الحقيقي، ونتصور الانسان في ظل هذه النظرية التي ظهرت في عصر التوهج العقلي والتنوير الفكري، وقد رجع بنفسه القهقري، حتى عصر الجاهليات، التي عبد في ظلها آلهة من صنع يده، ترجمة عن خيالاته وأوهامه، إنها تحط من قدره، وتغير من وضعه الحقيقي والطبيعي، في مراتب الموجودات. وتذكرنا تلك الصورة القاتمة عن طبيعة الانسان بصورته التي تخيله عليها المفكر الفرنسي "فولتير" حين وصله كتاب مواطنه "جان جاك روسو" عن مصدر عدم المساواة لدى البشر، فقال "فولتير" ردا عليه "وصلني كتابكم الجديد الذي ألفتموه ضد النوع الإنساني، وأنا أشكركم عليه، ولم يتخذ أحد موقفاً ظريفاً هكذا في محاولة تحويلنا إلى صورة البهائم، وبعد أن قرأت كتابكم تمنيت أن أمشى على القوائم الأربعة، غير أني قد تركت هذه العادة منذ كنت طفلاً أحبو". (٢٠)

* وحسب هذه النظرية أن يكون صاحبها قد اعترف بأن جهوده المضنية التي استغرقت ثلاثين عاماً أو يزيد في تدعيمها لم تأت بنتائج، إنما كانت مجرد أقيسة ذهنية، يحتمل أن يثبت الواقع أن خطأها أكثر من صحتها، كما حدد كثيراً من المجالات الشائكة التي تحتاج إلى دراسة أعمق بمنهج مخالف مثل: حقيقة التكوين الذهني ومدى سعته، العلاقة بين الروح والجسد في صورتها الصحيحة - العلاقة بين الفكر والمادة عموما. (٢١)

* وإذا كانت هذه النظرية وما شابهها لم تسلم من النقد، حتى من أصحابها أنفسهم، عندما يكفكفون من كبريائهم وغطرستهم، فإن الأحرى بنا أن نستنبت من بيئتنا بحوثاً، يراعى فيها الإطار العام لها، وهو الدين الذي يحكمها، ولا نشك في أن الذين سيولون وجوههم شطر هذا الاطار، سوف يجدون العطاء الثر، الذي يضع الإنسان في

---

(٢٠) ديورانت: قصة الفلسفة، ص ٣١٥.

(٢١) أسس علم النفس، ص ٦١٤، نقلاً عن: عصر الالحاد، ص ١٥٠، مرجع سابق.

وضعه الصحيح بين مراتب الموجودات - كما أشرنا - وكما هو الواقع من توجيه الاسلام نحو هذه الحقيقة.

٣ - نظريـــــة الجـــنس :

* لهذه النظرية جوانبها المختلفة وأبعادها المتنوعة، التي تشكل نسيجها وبناءها، وهي أشبه ما تكون بالبرق الوهاج الذي يأخذ بالأنظار في المجال الذي ظهرت فيه، إن إيجاباً أو سلباً، وهو مجال "التحليل النفسي".
* ويعنينا هنا أن نتناول تفسير هذه النظرية "للدين"، ثم وضع "الانسان" في تصورها، فهذان هما الأمران المهمان في هذا البحث.
* وأود أن أشير بادىء ذي بدء إلى قضية هامة وحاسمة ونحن نتعامل مع تلك النظرية وما ماثلها في منطلقها وغايتها، وهي نظرتها إلى حقيقة "الانسان" ووضعه، إنه في تصور تلك النظريات كائن أرضى مادي، لا يمكن أن يسمو بمشاعره إلى ما فوق ذلك، لأن ما فوق الطبيعة، ليس له وجود إلا في أوهام وخيالات الشواذ، والنتيجة المنطقية التي تترتب على تلك النظرة، أن تكون النتائج التي تفرزها، نزعات شخصية، وليست حقائق موضوعية ثابتة، إن أصحاب هذه النظريات يؤثرون استلهام الفترات الشاذة في تاريخ الفكر الانساني، وكأنهم يريدون أن تعود العجلة بالبشر إلى الوراء، بدلاً من أن تسير نحو أهدافها الطبيعية، إن إلباس الحقيقة الموضوعية نزعة ذاتية يفقدها موضوعيتها وحيادها، فكيف يدعى لها - حينئذ - أنها مسلمات لاتقبل النقد أو الجدل؟ إننا نؤمن بأن تلك النظريات يهيأ لها من عوامل الدعاية والترويج، ما لم يتوفر للحقائق الموضوعية، لأنها تخدم أهدافاً معينة، بعيدة عن نتائج العلم الموضوعي.
* كما ينبغي أن نعلم - أيضاً - أن العلوم التي تدرس الانسان - وعلى رأسها علم النفس - ينبغي أن تكون أكثر تواضعاً من العلوم الأخرى كالكيمياء والفيزياء وغيرهما، لأن ميدان "التجربة" فيهما مختلف، وكذا طبيعة التجريب، وبالضرورة لابد أن تكون النتائج كذلك. فإذا كانت العلوم الطبيعية تتقلب عليها أحوال تجعلها غير نهائية في كثير من نتائجها، فمن باب أولى أن يكون هذا من شأن العلوم "الانسانية"، يؤكد هذا ما قاله "أينشتين" عن "نيوتن": إن قانون الجاذبية لا يصلح للتطبيق إلا على سطح الكرة الأرضية، فإذن هي حقائق محلية صغيرة، لا مطلقة، وهي قابلة للنقض والتبديل،

حين تطبق على الاتساع " .[٢٢]

* ونعود أدراجنا إلى ما كنا بصدده، وهو الحديث المركز عن دعائم نظرية الجنس عند "فرويد" وموقع الدين والانسان منها، حتى نرى وجها لوجه نتائجها وآثارها. لقد أقامها على عدة مبادىء هي :

أ) البحث عن الرغبات يقتضينا البحث عن ذكريات الماضي.

ب) ماضي كل إنسان هو المسؤول عن حاضره.

جـ) كل سلوك ينبنى على عوامل الرغبة، إنما ينشأ عن البواعث الدفينة، وهو ترجمة لها.

ثم يقسم النفس الانسانية إلى :

١ - الشعور : وهو أحد جانبي النفس ، الذي يقدر به الانسان على التفكير والفهم الخ.

٢ - اللاشعور : هو الجانب الآخر من جانبي النفس ، وهو منبع لجميع عواطف الانسان وأفكاره. ودائرة هذا الجانب أوسع وأرحب من جانب الشعور، والعلاقة بينهما كالعلاقة بين الزبد والبحر. أي أن "اللاشعور" هو الأصل والحقيقة "للشعور" .[٢٣]

* ثم يقرر "فرويد" أن الرغبات الجنسية عند الانسان تلازمه منذ بدء حياته، وهي كامنة في اللاشعور، تظهر بشكل متدرج، وتعبر عنها تصرفات متنوعة، منذ زمن الطفولة المبكر، وفي ضوء الدور الهائل للاشعور الذي يحدثه لدى الانسان، يكون الدين كرد فعل لموقف "جنسي" مكبوت، إن البدايات الأولى للدين إنما نشأت من جريمة منكرة، لقد أحس الأبناء في الماضي السحيق برغبة جنسية عارمة تجاه أمهم، غير أن خشيتهم من أبيهم كانت تمنعهم من اقترافها، ولما لم يستطيعوا لها دفعا، قتلوا أباهم، حتى يخلو لهم وجه أمهم، ولكنهم سرعان ما شعروا بالندم، من جراء فعلتهم النكراء، فصمموا على تقديس وتخليد ذكراه، واختلط شعورهم هذا بانعطافهم نحو بعض الحيوانات التي قدسوها ومنعوا قتلها، تكفيراً عن قتل أبيهم. وكل مظاهر التدين التي جاءت بعد ذلك، إنما كانت منطلقة من هذه الفكرة، فكرة الاحساس بالجريمة، التي كانت نتيجة لكبت رغبة جنسية .[٢٤]

---

(٢٢) محمد قطب : الانسان بين المادية والاسلام، ص٢٠، ط ٤، القاهرة، ١٩٧٧.

(٢٣) عصر الالحاد، ص ١٥٢ - ١٥٦، مرجع سابق.

(٢٤) محمد قطب : الانسان بين المادية والاسلام، ص٣٨، مرجع سابق.

وهنا يظهر "الدين" كنوع من التسامي بغريزة "الجنس".

* ومن الطبيعي أن تكون "القيم" أو الأخلاق والعادات، وضوابط سلوك الفرد التي تضعها المجتمعات لنفسها حتى لا ينشأ صراع بين الأفراد، كلها قيود لكبت غرائز الانسان، إنها تؤدي في نفس الوقت وظيفة عكسية من حيث لا تدري، إنها تشعر الانسان بالشيء الممنوع، وهذا في حد ذاته يولد عنده الرغبة، في تحقيقه، من ثم تعطيه إمكانية هذا التحقيق، جهرة اذا أمن، واحتيالاً اذا خشي سوء المصير. (٢٥).

* ولنا أن نتصوروضع "الانسان" في ضوء هذه النظرية، وهذا يعنينا بأكثر مما يعنينا جوانب النقص فيها، لاسيما وأن صاحبها قد اعترف بذلك، كما أن الاستدراكات عليها، قد تعددت حتى جاءت من أقرب تلاميذه، وأعني به "يونج" (٢٦). إن الانسان في ظلها كائن تحركه غرائزه المادية في كل اتجاه، ولاتضبطه قيم، ولا يوجهه دين، طالما أن اللاشعور هو منبع كل شيء لديه، وأن الغرائز كلها فيض عنه، ومن أظهرها غريزة "الجنس".

* إنه من الممكن أن نقول صراحة: إن هذه النظرية وما مامثلها إنما جاءت تعبيراً عن مخطط مرسوم، لحساب عنصريات معينة (٢٧). وعقائد خاصة، تستهدف الإنسانية في أعز ما تملك، في دينها وقيمها وأشواقها العليا، وإيمانها الفطري العميق بما وراء هذا الوجود، من خالق حكيم، استودع الانسانية أسرار حكمته، وزودها بالطاقات كلها المادية والروحية، على اختلاف منازعها، ووضع لها من الضوابط الضامنة لسيرها نحو كمالها حتى تحقق الغاية من وجودها، وهو تحقيق العبودية الكاملة لله رب العالمين، لتكون مستأهلة الخلافة عنه على ظهر هذه الأرض.

---

(٢٥) نفس المرجع، ص ٣٩.

(٢٦) وقد قرر العالمان "سوليفان" و "كاريل" ما يأتي: "إن السيطرة على العالم المادي في نماذج منه لفهمها، تكون أمراً ممكنا، أما السيطرة على عينة يدخل الانسان والعقل والحياة فيها، فتكاد تكون مستحيلة، والنتائج التي تصل إليها في هذا المجال تكون ضعيفة ومتلجلجة"، انظر: العلم في مواجهة المادية، ص ١٢٥، مرجع سابق.

(٢٧) جاء في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" وهو دستور الممارسات لدى اليهودية الصهيونية الذي يرسم خططها وسياساتها: "يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا... إن "فرويد" منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس، لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه". انظر: الانسان بين المادية والاسلام، ص٢٥، تعليق مرجع سابق. كما جاء في البروتوكول الأول ما نصه: "...ولاحظوا هنا أن نجاح "داروين" و "ماركس" و "نيتشه" قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد..."، أنظر: البروتوكولات ص ١١٣، ط، بيروت، ١٩٨٠.

٤ - النظـــــــرية الاشـــــــتراكية :

* تمتد يـدي لكتابـة هذه السطـور، والعالم أجمع يسمع كـل يوم عـن الجديد مـن تنازلات وتراجعـات الشيوعية عـن مواقفها، فكـراً وتطبيقاً، وفي الجانب التنظيري ظهـر كتاب "البروستريكا" أي اعادة البناء، كمظهر فكري لفشلها في صياغة الحياة على نمط يختفى فيه الصراع كما يدعى المذهب. فهل نتخذ من الواقع دليلاً يكفينا - والواقع أقوى الأدلة كما يقولون - عـن الحديث عنها ولو بـإيجاز؟. أعتقد أن ذلك كاف، غير أن بعضـاً من مثقفينا لا يزالون متشبثين بها، ولا يعدمون صيغة من صيغ الجدل - وهم فيه على درجة عالية- بها يحاولون اقناع خصومهم، بأن ما حدث، إنما هو لصالح النظرية وتأكيد لها. من ثـم تكون لنـا وقفة هنـا ولو قصيرة، ونحـن في النهايـة لاننهج إلا نهج الحق تبـارك وتعالى حين قال لرسوله (ﷺ) .. ﴿وَلَوْشَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (٢٨) ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (٢٩)، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (٣٠).

* وفلسفة هـذه النظريـة تقوم على أساس أن العـامل الاقتصـادي للمجتمعات هـو هدف الحياة ومحور القيـم الأخلاقيـة والروحية والعلميـة لها. وهذا مـا صرح به "مـاركس" واضع أسس النظرية، وقد شرح "انجلز" هذه المسألة بقوله: إن "ماركس" قد كشف عن حقيقة بسيطة هي: أنه قبل أن يعتنى الانسـان بالسياسة والعلم والدين والفن يجب أن يتوفـر له الأكل والشرب والسكـن. أي أن الحاجات الاقتصـادية هي أصـل وسبب الحياة. ومن ثم فإن تطور المجتمعات صعوداً وهبوطاً إنما ينبثق من هذا الجانب.

* ونلاحظ أن بين نظرية التطور الطبيعي التي قال بها "دارون" ونظرية التطور الاجتماعي التي قـال بها "ماركس" عـلاقة حميمة، كشـف عنها "انجلـز" بقوله: "لقـد اكتشف "دارون" قانـون التطور الطبيعـي، واكتشف "مـاركس" قـانون التطـور الاجتماعي، وكلا المفكريـن لا يجعل للدين والقيم إلا أثـراً ثانوياً، كما أنهما في نفس الـوقت لا يقران بأن الـدين حقيقة مـوضوعيـة تأتي الإنسان مـن أعلا، بل هـو نتيجة لتطـور الحياة، في جانبها الطبيعي - كما يرى دارون - أو جانبها الاقتصادي، كما يرى "ماركس".

---

(٢٨) سـورة الأنعـام: من الآيـة ٣٥.
(٢٩) سـورة البقـرة: من الآيـة ٢٧٢.
(٣٠) سـورة الكهـف: الآيـة ٦.

* إن مما لاشك فيه أن الدين والأخلاق والفن في ظل هذه النظرة المادية بالنسبة إلى حاجات الانسان الأساسية والضرورية، وأنها المؤثرة في سواها، تصبح أشياء لا قيمة لها، طالما أن المؤثر فيها هو الجانب الاقتصادي، وقد جاء في البيان الشيوعي هذه العبارة الموجزة: "إن تاريخ الأفكار، لا يدل إلا على أن الفكر الانساني يتغير بتغير الأحوال المادية[٣١].

* ولنا أن نتصور الحياة الإنسانية حين يكون الجانب الاقتصادي هو المهيمن عليها والمحرك لها، في غيبة الدين والقيم العليا، كيف يكون المجتمع آنذاك؟ وكيف تشبع الحاجات عندما يتزاحم على إشباعها الأفراد والجماعات في أحوال الندرة أو عدم الكفاية؟ إنه الصراع المرير، الذي يظهر في ظله أن المجتمع الانساني أشبه ما يكون بمجتمع الغابات، لا مكان فيه إلا لمن له القدرة على حصوله على حاجياته بأظافره وأنيابه، ولو على جماجم الآخرين، وتصبح القيم الرفيعة - حينئذ - كالايثار والحب والإخاء والعدل والسلام الاجتماعي ألفاظاً جوفاء، لا وجود لها إلا عند القديسين وأصحاب الأخلاق المثالية.

* هذا هو وضع الانسان في إطار تلك النظرية، أما عن أساسها وبنائها، فإنها تحمل في طياتها أدلة انهيارها، وبغض النظر عن الواقع الذي نراه في يوم الناس هذا، فإن أساسها الفلسفي - كما تعترف - غير مسلم، لأن مقولاتها تنشأ وتتخلق لدى كل فيلسوف بصيغة قد تختلف عن الفيلسوف الآخر، وقد تكون مناقضة لها تماما، ومن ثم فإن وصف هذه المقولات بالعلمية، وإنكار هذا الحق على الآخرين، واتهامهم بالمثالية أو السوفسطائية أو البرجوازية، كل ذلك غير علمي على الاطلاق.

* لقد طرح "ماركس" و "انجلز" مقولاتهما الفلسفية قبل عصر الفيزياء الذرية، حيث تهاوت جدران المادية أمام اكتشافاتها، ويسقط ادعاء "ماركس" - حينئذ - بأن نظريته، ليست خلقاً جديداً أتى به، بل هي اكتشاف لحقيقة موضوعية موجودة في الواقع. ولو قدر لكل منهما - ماركس وانجلز - أن يرجعا للحياة ثانية، فإنهما قد يكونان إزاء ضغوط حتميات المناهج الفلسفية العامة، على ضوء هزات العلم العملاقة، أكثر تحرراً[٣٢]، إن لم تأخذهما العزة بالأثم، كما تأخذ بعض أنصار "الماركسية" في يوم الناس هذا.

---

(٣١) البيان الشيوعي: ص ٣٨، نقلا عن: عصر الإلحاد، ص ١٧٤.

(٣٢) العلم في مواجهة المادية، ص ٥٨، مرجع سابق.

*** تعـــــقيب :**

* ذكـرنـا هذه النظـريـات الأربـع كأمثلـة لغيرهـا في مجالات : البيـولوجيـا - النفـس - الاقتصاد، ولم نشأ أن نستطرد، حـرصاً على مساحة البحث، لنقول شيئـاً هاماً، هو أن هذه النظريات وما شاكلها، التي تنطلـق من النظرة المادية للإنسان والكون والحياة، لا تملـك لنفسهـا وجوداً أمـام العلـم نفسـه، بعـد أن ظهرت البحـوث الجادة مـن العلماء الأثبات أمثال : كريسي ميرسون [٣٣] ، وألكسيس كاريل [٣٤] ، وموريس بوكاي [٣٥] ، وسوليفـان [٣٦] ووحيد الديـن خان [٣٧] وغيرهم، إن بحوث هؤلاء جميعـاً قوضت ما كان سائداً من نظـريات علمية في القرن الماضي، وكشفت أن تلك النظـريات لم تكن إلا مسخاً وتشويهاً للعلـم بمعناه الصحيح، لأنها انطلقت من تصـورات خاطئة، أدت إلى نتائج خاطئـة كذلك. فإذا كنـا نحن المسلمين بصدد بناء إطـار جديد تسعى مـن خلاله دراساتنا بمنهج علمي، في كل مجالات النشاط الانساني، حتى تصل إلى أهدافها، وهو الوضـع الحقيقي لـلإنسان على ظهر هـذه الأرض، فما عساه يكـون ذلك الاطـار حتى يتحقق ذلك الهدف؟ هذا ما سيتكفل به الجزء الآتي من البحث.

*** الإطـــــــار :**

* أستهل حديثي عن هذا الموضوع بكلمة ممتازة قالها عن القرآن الكريم "موريس بوكاي" جاء فيها : "لقـد قمت بدراسة القـرآن الكريم دون فكر مسبـق، وبموضوعية تـامة، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ... وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقـق قائمة أدركت بعد الانتهاء منهـا، أن القرآن الكريم لا يحتوي على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث" [٣٨].

* إن الفكـرة المحوريـة هنا تقـوم على اساس واضـح، هـو أن : القرآن الكـريم كـلام الله سبحانـه، الذي لا يأتيه البـاطل من بين يـديه ولا من خلفـه، تنزيل من حكيـم حميد، وليس هناك من معارض لهذه القضية بعد أن توالت هزمات الذين يتحدونها، اللهم إلا

---

(٣٣) في كتابه المترجم إلى العربية تحت عنوان : "العلم يدعو إلى الإيمان".
(٣٤) في كتابه : "الانسان ذلك المجهول".
(٣٥) في كتابه : "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة.
(٣٦) في كتابه : "حـدود العـلم".
(٣٧) في كتبه : "الاسلام والاشتراكية، الماركسية التي رفضها التاريخ، الاشتراكية، الاسلام يتحدى".
(٣٨) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٣، ط دار المعارف، القاهرة، القاهرة، ١٩٧٨.

أن يكون التحدي كلاماً لا وزن له ولا قيمة. وإذا كان الأمر كذلك، وقد تحدث هذا الكتاب العظيم عن الإنسان والكون والحياة حديثاً يبين منه أن الوجود الكوني كله إنما يحكمه خالقه بقوانينه التي سنها، وأن ذلك الكون بكل صوره وأشكاله، إنما هو آيات منثورة تتوافق تماما وبكل دقة مع آياته المسطورة في هذا الكتاب المبين، فإن النشاط الإنساني كما ينبغي أن يكون - وبخاصة في بيئتنا الاسلامية - في كل مجالات البحث العلمي، لابد أن ينطلق من هذا الأساس.

* حقاً إن القرآن الكريم كتاب هداية، وهذه طبيعته التي تفرد بها، ولكن مفهوم الهداية هذا، ينبغي أن تدرك أبعاده ومراميه، وأول ما يتبادر إلى الذهن هنا هو هذا السؤال، بم تكون ولمن تكون الهداية وما الغاية منها؟ أعتقد أن قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٩) قد يكون فيه الإجابة على بعض جوانب هذا السؤال، إن مفتاح الهداية هنا - بصريح الآية - هو "النظر الصحيح" الذي يرتب فيه المعلوم ليؤدي إلى مجهول كما قال أسلافنا (٤٠)، فكون منظور مشاهد، تتوازن وحداته ومكوناته على أتم ما يكون التوازن، وتتلاءم عناصره كأحسن ما يكون التلاؤم، لابد أن يكون أثراً لعلة حكيمة، والبديل لذلك هو "المصادفة والعشوائية". وهما ساقطان في معيار النظر والعلم معاً.

* إن عجز الآية الكريمة ﴿ **وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ شاهد على أن الذين توقف نظرهم عند ظاهر الحقيقة، دون اكتشاف ما وراءها، قد أداهم هذا المنهج القاصر إلى عدم الإيمان، وكأن هذا الكلام ينطبق تماماً على أولئك الذين يقفون عاجزين أمام تعليل الظواهر الكونية، ويجأرون بأن هذا فوق العلم، من ثم تثبت أقدامهم على موقف الإنكار والإلحاد.

* إننا لا نبالغ إذا قلنا إن الالحاد الذي انتهى إليه هؤلاء ليس وليد العلم كما يدعون، لأن العلم له حدوده ودائرته التي ينشط فيها، ونظرهم هنا قاصر، لأن مبدأ "العلية" مبدأ فطري في النفس البشرية، فإذا لم يسعفهم العلم لتعليل ظاهرة من الظواهر، فلينظروا إلى ما فوقه إذا كانوا يريدون الحقيقة.

* إن الآية التي معنا لها قريناتها في القرآن الكريم، وهي جميعاً تشكل إطاراً للنظر في

---

(٣٩) سورة يونس: الآية ١٠١.

(٤٠) انظر: العقيدة الاسلامية: أصولها وتأويلاتها، ص ٤٨، لصاحب هذا البحث.

الكون، كشفاً عن سنن الله سبحانه فيه، وإيجاداً أو تأكيداً للايمان في القلوب، وهداية نحو المنهج الأمثل في التعامل مع الوجود والحياة. حتى ليشعر المتأمل فيها، أن الحق سبحانه وتعالى، قد أحدث ذلك الترابط الوثيق المحكم بين الإنسان وعناصر الكون كله، كمظهر لعظمته وقدرته من ناحية، وليتأسس الايمان على قواعد ثابتة رصينة، بفضل ما يكشفه سعي الانسان وكده في الكشف عن سنن الله سبحانه من ناحية أخرى.

* في هذا الجو الذي يتهيأ فيه للإنسان كل عناصر "الايمان" نستطيع أن نقول "إن الالحاد ظاهرة تولدت عن الجهل" ولا أقصد به الجهل المعرفي، فلربما يوجد كثير من الملحدين أصحاب معارف كثيرة، مثل: جوليان هكسلي وبراتراند رسل وغيرهما، وإنما أقصد به جهل "القلوب" حيننا توصد أما الحقائق الباهرة. وقد سجل القرآن الكريم هذه القضية على أهل الكتاب، حين كانوا يستفتحون على الذين كفروا، فقال: ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (٤١).

● آيات من القرآن الكريم لها دلالات علمية:

* تجدر الإشارة هنا إلى مسألتين: ***أولاهما*** : أن قصدنا بالدلالة العلمية، ما جاء به العلم الحديث موافقاً لتوجيهات القرآن الكريم، في دائرة ما أصبح حقيقة لا تقبل النقض، وإلا فالقرآن الكريم كله ذو دلالات علمية بالمعنى العام للعلم، ***ثانيتهما*** : أننا سنختار بعض الآيات في المجالات الكونية، والحياتية كأمثلة تقوم مقام غيرها، مما له اتصال بهذه المجالات، لنرى كيف تكون هذه الآيات منطلقاً وإطاراً للبحث العلمي المسترشد بتوجيهها ودلالاتها.

● المجال الأول: خلق السماوات والأرض ومراحل الخلق:

* جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن قضية خلق السماوات والأرض في ستة أيام، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾(٤٢)، وفي بعض الآيات يضيف القرآن الكريم إلى أن نفس المدة ﴿ ستة أيام ﴾ كانت ميقاتاً زمانياً لخلق ما بين السماوات والأرض أيضاً، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(٤١) سورة البقرة، من الآية ٨٩.
(٤٢) سورة الأعراف: من الآية ٥٤.

وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾(٤٣).

* والمراد فهمه هنا هو "اليوم" هل المراد به ماهو معروف في يوم الناس هذا - ومن قبل طبعاً - وهو المدة المحصورة بين شروقين أو غروبين متتاليين ؟ أم أن المراد به شيء آخر، إنه في نظر "العقل" يستحيل أن يكون المراد به المعنى الأول، لأن هذا المعنى لا يستقر إلا بعد إتمام عملية الخلق، حتى يبدأ بعد ذلك تعاقب الليل والنهار فيتكون من وحدة التعاقب "يوما" نضبط به أحداثنا، إذن لابد أن يراد بلفظ "اليوم" معنى آخر وهذا المعنى قد أدركه بعض مفسرى القرآن الكريم مثل أبي السعود في تفسيره لهذه القضية، وهو أن المراد باليوم هنا "المرحلة" من ثم يصير المعنى : أن خلق السماوات والأرض تم في ست "مراحل". والقرآن الكريم نفسه قد جاءت فيه آيات أخرى تنفى أن يكون المراد باليوم هو المدة الزمانية المعروفة، ففي سورة السجدة نقرأ قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(٤٤)، كما جاء في سورة المعارج قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(٤٥).

* من هذا نرى أن "الأيام الستة" التي استوعبت خلق السماوات والأرض وما بينهما، يراد بها "المراحل" المتعاقبة في عملية الخلق، وهذا ما تفسره معطيات العلم الحديث، ويظهر من القرآن الكريم نفسه - حسب ما ذكرنا - أن كلمة يوم ينبغي أن تفهم على أنها "حالة" أو "مرحلة" وليست وعاء زمانياً للأحداث فحسب.

* إننا نرى أن الدراسات التي تتناول قضية "الخلق" من حيث مراحلها وعصورها لاتزال في حاجة إلى مزيد من التعمق ودقة البحث، فهل يمكن لباحثينا أن يتخذوا من تلك الآيات التي ذكرناها - وما شابهها - إطاراً تنطلق منه أبحاثهم بمنهج علمي متكامل يجمع بين النصوص المتماثلة في صعيد واحد، يدرس سياقها وسباقها ولحاقها، مسترشداً بما وصل إليه العلم في يومنا هذا حتى يمكن أن يمدنا بالجديد من نتائج البحث والدراسة؟ هذا ما نتمناه.

* ويتصل بالقضية التي معنا قضية أخرى تتعلق بتشكل الكون الأساسي وانتهائه إلى المظهر الذي استقر عليه بعد أن تكونت عوالمه ومعالمه. يقول القرآن الكريم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا

(٤٣) سورة الفرقان : من الآية ٥٩.
(٤٤) سورة السجدة : آية ٥.
(٤٥) سورة المعارج : آية ٤.

أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٤٦)، ثم يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(٤٧).

* والآية الأولى تشير إلى عملية ظاهرة في كتلة الكون الأولى "عملية الفتق" ولا تكون إلا بعد "الرتق" لأن المعنى الثاني يدل على "الربط" وانضمام الأجزاء بعضها إلى بعض، والأول يشير إلى انفصالها وانفكاكها.

* كما تشير الآية الثانية إلى أن مكونات السماء هي الكتلة الغازية "الدخان"، وهاتان المسألتان يتناولهما العلم كمجال لدراساته عن أصل الكون وشكله، وله في ذلك تفسيرات قد تصدق وقد تكون احتمالية، وقد تكون كاذبة، فهل يمكن أن تتوجه بحوثنا للكشف عن الجديد في هذا المجال أيضاً بنفس المنهج الذي أشرنا إليه آنفاً ؟

* ويمكن أن يضم إلى هذا المجال، قضية عدد السماوات والأرض، والتي تكررت كثيراً في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(٤٨)، كما يمكن أيضاً أن تكون "المخلوقات" التي بين السماوات والأرض مجالاً رحباً لتلك الدراسات، تكشف عن مدلول "مابينهما" مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(٤٩).

* إنه من المؤكد أن علم الفلك لم يصل بعد إلى تأكيدات في كثير من نتائجه، وهذا يعني أن باب البحث والتحري وإعادة النظر لا يزال مفتوحاً، غير أن الأمر المقطوع به أنه لم يوجد أدنى تعارض بين ما تحدث عنه القرآن الكريم في قضية "الخلق" ومراحله، ومكوناته الأولى "السديم" وبين المعطيات العلمية المؤكدة في هذه القضية(٥٠).

● **المجال الثاني : التوازن بين السماوات والأرض وما فيهما :**

* في القرآن الكريم، آيات تتحدث عن علاقة السماوات بالأرض، وأخرى تتحدث عن علاقة الكواكب ومواقعها وأبعادها، وكذا النجوم، ونوع ثالث يتحدث عن طبيعة كل من كوكبي الشمس والقمر، وهذه كلها مجالات فسيحة لعلوم الفلك والفضاء.

---

(٤٦) سورة الأنبياء : آية ٣٠.
(٤٧) سورة فصلت : آية ١١.
(٤٨) سورة الطلاق : الآية ١٢.
(٤٩) سورة ق : الآية ٣٨.
(٥٠) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٧٢.

* **فمن النوع الأول** : قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾(٥١)، وقوله ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾(٥٢)، وقوله : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾(٥٣).

* ويؤكد علم الفلك أن ابتعاد الأجرام السماوية على مسافات عظيمة، متناسبة طردياً مع كتل تلك الأجرام يشكل أساس توازنها، وإن الخضوع لهذا التوازن هو الشرط الأساسي لعدم وجود اضطرابات بينها. حتى إن بعض العلماء أطلق على تلك العلاقات عملية "التوازن العجيبة" من ثم نرى القرآن يعبر أحياناً عن خضوع السموات لأمر الله، كمظهر لهذا التوازن، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾(٥٤).

* **ومن النوع الثاني** : قوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾، ومن قبل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾(٥٥).

* ونتيجة الحسابات الفلكية تقرر انتظام سير الأجرام السماوية واستمرارها على هذا الانتظام، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا النظام المستمر بالدأب، في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾(٥٦).

* **ومن النوع الثالث** : ما جاء في القرآن الكريم من آيات تصف طبيعة الشمس بالضياء والسراج الوهاج وتصف القمر بالنور، مثل قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٥٧)، وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾(٥٨).

* إن معطيات علم الفلك تقرر أن الشمس ينتج باحتراقها الداخلي حرارة شديدة

---

(٥١) سورة ق : الآيتان : ٦ ، ٧.
(٥٢) سورة لقمان : من الآية ١٠.
(٥٣) سورة الحج : من الآية ٦٥.
(٥٤) سورة المؤمنون : الآيتان ٨٦ ، ٨٧.
(٥٥) سورة يس : الآية ٣٩ ، ٤٠.
(٥٦) سورة ابراهيم : الآية ٣٣.
(٥٧) سورة يونس : الآية ٥.
(٥٨) سورة الفرقان : الآية ٦١.

وضوءاً، أما القمر فليس مضيئاً بذاته، بل يعكس الضوء الذي يستقبله من الشمس.[٥٩]

* إن ما قدمناه من آيات في هذا المجال، جاء العلم متوافقاً مع دلالاتها، ليس حاصراً، بل هناك الكثير غيرها، وكأن ما سقناه هنا بمثابة المدخل الذي يمكن أن تتبعه دراسات أخرى، لأن مهمة هذا البحث هي رسم الاطار والهدف، مستشهداً ببعض معطيات العلم التي استقرت، والتي يمكن أن يكون القرآن قد وجه إليها، ويمكن أن نحدد بعض نقاط البحث التي أشرنا إليها في هذا السبيل: النجوم - الكواكب - السماء الدنيا - البنية السماوية - مدار كل من الشمس والقمر - تنقل الشمس والقمر في الفضاء بحركة خاصة - تعاقب الليل والنهار - تطور العالم السماوي - الامتداد الكوني وتوسعه أكثر مما هو عليه - غزو الفضاء - الأرض من حيث تضاريسها وما فيها من بحار وجبال - الطبقات الجوية المحيطة بها.

* وأحب أن أؤكد على معنى سبقت الإشارة إليه، وهو أن دراسة هذه الظواهر مقطوعة عن سياقها ودلالاتها النهائية بفقدها المعنى الذي هو لها داخل القرآن الكريم ككتاب هداية، إن ما يكشف عنه العلم من نتائج في هذا المجال وفي غيره تتوافق مع دلالاتها والإشارة إليها في هذا الكتاب العظيم، ليؤكد للباحث المحايد دقة الاعجاز العلمي لهذا الكتاب، وبضميمة هذه النتيجة إلى جانب وجوه إعجازه الأخرى، تتأكد ألوهية مصدره، وبالضرورة، الصدق في كل ما أخبر.

● **المجال الثالث: عالم النبات والحيوان:**

* في القرآن الكريم آيات ظاهرة الدلالة على أن الماء أصل حياة الأحياء، بل أصل خلقها، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[٦٠]، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[٦١]، ويرى العلم الحديث أن النباتات وجدت أولاً بفضل الماء، وأن الحيوانات وجدت بعد ذلك، حتى تجد لها غذاء من النبات، وأن الانسان كان آخرها، ليجد غذاءه منهما معاً. كأن كل العمليات البيوكيميائية اللازمة للحياة تحتاج إلى الماء، لأنه العنصر الأساسي للكائنات الحية كلها، لما له من الخصائص التي لا تتوفر في غيره،

---

(٥٩) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٧٩، مرجع سابق.
(٦٠) سورة النور: الآية ٤٥.
(٦١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

من سيولة وذوبان ودرجة تصعيد عالية جداً، كما أن له قابلية التلاؤم مع طبيعة الأجواء المختلفة من حيث الحرارة والبرودة، كما أن الأكسوجين أحد عنصريه، وهو لازم للأحياء جميعاً، هذه الخصائص والمميزات يعترف بها العلم، غير أنه يقف عاجزاً عن تعليل احتواء الماء على خصائصه هذه، وكذا في كل ظاهرة تحتاج إلى تعليل، وفي هذا إفساح المجال للإيمان، ليقرر أن هذه الخصائص من قدرة الإله الخالق، رب العالمين، الذي خلق فسوى، وقدر فهدى.

* وفي هذا المجال يمكن دراسة: عالم النبات - التوازن الذي يتحكم فيه - التزاوج وطرائقه - العلاقة الحياتية بينه وبين عالمي الحيوان والانسان. ومما لاشك فيه أن العلم الحديث له منجزات كثيرة في هذا المجال، والمطلوب: التأكد من نتائجها ومدى انطباقها على إيحاءاتها القرآنية، وأما ما لم يكشف عنه بعد مما أشار إليه القرآن الكريم، فهو مجال بكر للبحث والنظر.

* ومما لاشك فيه أن دراسة هذين العالمين - النبات والحيوان - ذات صلة وثيقة بكل العلوم الحيوية والطبيعية والبيئية. وفي هذا اثارة للعقل المسلم حتى يعمل بجد ومثابرة، ليصل إلى نتائج موثقة، تبرر له القول - كمسلم - أن الثنائية التي نشأت في البيئات الأوروبية بين العلم والدين، لا مجال لها في الاسلام، لأن العلم في المنظور الاسلامي، انبثاق من طبيعة هذا الدين.

* ويتصل بهذا المجال: دراسة الأرض وطبقاتها، ومكوناتها، ظاهرة وباطنة، وما عليها من جبال وما فيها من محيطات وأنهار، وخصائص ما احتواه باطنها من بعض المعادن، التي عليها قيام العمران كالفحم والحديد والبترول وغيرها، كل هذا في ضوء ما جاءت به آيات القرآن الكريم في كل موضوع من هذه الموضوعات، وبنفس المنهج الذي رسمناه سلفاً.

● **المجال الرابع: عالم الانسان:**

* الإنسان هو محور حديث القرآن الكريم، من أجله أنزل، وإليه تحدث، وحتى يسعد في الحال والمآل رسم له المنهج، وليتحقق بذلك كله معنى "الخلافة" عن الله سبحانه وتعالى في الأرض. تحدث القرآن الكريم عن الانسان من هذه الحيثيات.

١ - وجوده بعد العدم: كمظهر على قدرة الخالق، وامتنانه عليه حتى لايطغى، قال

تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (٦٢) .

٢ - الإنسان الأول "آدم عليه السلام" والمادة التي خلق منها والطريقة التي خلق بها، والهدف من خلقه، وما متع به من الإسكان في الجنة مع زوجه، وتعليمه الأسماء كلها وإسجاد الملائكة له، وقبوله وسوسة الشيطان - حين أمر بعدم الاقتراب من شجرة بعينها من أشجار الجنة - وتوبته وقبولها، واذا كان الإنسان الأول، فوق الخضوع للدراسة العملية التجريبية، فإن ذريته من بعده، يمكن أن تكون مجالاً لدراسات متنوعة، مثل :

أ) علم الأجنة :

ويتناول عملية التكوين الأولى بعد اللقاح وتطورها، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (٦٣) .

ب) علم الفسيولوجيا :

ويتناول وظائف الأعضاء، وعملية استفادة كل عضو مما يناسبه من الغذاء، تعويضاً لما يفقده من طاقة، وعلاقة كل عضو ببقية أعضاء الجسم، حتى يؤدى الجسم دوره الطبيعي بطريقة منتظمة، ويتصل بهذا : الغذاء ومكوناته وكيفية تمثيله، ودرجة ملاءمته .

جـ) علم الطب الوقائي والعلاجي :

ويتناول وضع الضوابط الصحية والغذائية التي تحفظ على الجسم صحته كما يتناول - في الجانب العلاجي - معرفة أسباب الأدواء التي تلم بالجسم وتشخيصها ووضع الدواء المناسب لها .

د) علم النفس :

ويتناول الجانب الداخلي في الإنسان، دوافعه، غرائزه، انفعالاته وتفكيره .

هـ) علم الاجتماع :

---

(٦٢) سورة الإنسان : الآية الأولى .
(٦٣) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ - ١٤ .

ويتناول حياة الإنسان في جماعة، والضوابط التي تحكم سلوك الجماعات، ودوافع وأسباب ذلك السلوك، والظواهر الاجتماعية والعلاقات بينها، وأسباب قيام الاجتماع الانساني والعلل وراء قيام وسقوط الحضارات. وسنشير بشيء من التركيز الشديد إلى بعض منجزات العلم في بعض ما ذكرناه، ودلالاتها في القرآن الكريم، ليكون نموذجاً لغيره من الدراسات المطلوبة في هذا الميدان.

* **في علم الأجنة :**

في الآيات التي ذكرناها سلفاً من ١٢ - ١٤ من سورة "المؤمنون" تشير إلى ما انتهى إليه العلم من طبيعة عملية "الاخصاب" وتطورها، فالعملية تتم بفضل كمية من السائل تحمل الخلايا الذكرية والبويضة الأنثوية، ويتشكل السائل المنوي من إفرازات تأتي من الخصيتين، من الغدة التناسلية، وهي خلايا مستطيلة، مزودة بهدب طويل، تسبح في سائل مصلي، وتختزن الحويصلات المنوية هذه الحيوانات، وتقع على مقربة من "البروستاتا"، ولها إفراز خاص، لكنه لا يحتوى على عناصر مخصبة، كما تفرز "البروستاتا" سائلاً يعطى للسائل المنوي قوامه الغليظ ورائحته الخاصة، وأيضاً تفرز الغدد الملحقة بالمسالك البولية سائلاً آخر، وتكون هذه السوائل مجتمعة ما أشار إليه القرآن الكريم "بالأمشاج" والذي يتسبب في إخصاب البويضة هو خلية شديدة الاستطالة طولها واحد إلى عشر آلاف ملليمتر، وهي واحدة من بين عشرات الملايين الصادرة من الرجل، يصل إلى البويضة، بينما يبقى عدد كبير جداً في الطريق، ولا ينجح في قطع المسافة التي تؤدي من المهبل إلى البويضة عبر تجويف الرحم وقناة "فالوب".

* ويعلق "موريس بوكاي" بعد أن اهتدى بما كتبه الاختصاصيون في هذا المجال بقوله : "كيف لا ندهش أمام الاتفاق بين العنصر القرآني والمعارف العلمية التي اكتسبناها من هذه الظاهرات" (٦٤).

* والأكثر من هذا اندهاشاً وتعجباً أن نستوعب ما ذكره "كريسي ميريسون" في هذا المقام، كأحد أسباب سبعة للايمان، إذ يقول : "إن جميع الناسلات "الجينات" التي يتولد منها سكان الكرة الأرضية، لو وضعت في حيز واحد لما زادت على قمع الخياطة، ولكنها كانت في كل خليقة حية، وفي طواياها تحمل أسرار الخصائص التي يتصف بها

(٦٤) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ٢٣٠، مرجع سابق.

جميع الآدميين ... إنه واقع لا ترقى إليه الشكوك بعد أن أثبت العلم صحته. فكيف - إذن - تنطوى في هذه الناسلات جميع عوامل الوراثة المتخلقة من حشود الأسلاف، وتستبقى لكل فرد مقوماته النفسية في هذا الحيز الذي بلغ الغاية من الدقة والصغر [٦٥].

* إن دراسة الانسان في طور تكوينه الأول، ثم في أطوار نموه اللاحقة لجديرة لأن تقود العلم إلى نتائج باهرة، متى اتخذ طريقه السوى - بعيداً عن الوقوف عند ظواهر القضايا التي يتناولها - وقد كشف الباحث الفرنسي "ألكسيس كاريل" عن الخطأ الذي تقع فيه الدراسات التي تتصل بالانسان، وفي نفس الوقت عن مدى قصورها عن إدراك ما وراء ظاهره إذا تناولته بنفس المنهج الذي تتناول به العلوم الطبيعية فقال: "... ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة والإنسان بصفة خاصة لم يصب في تقدمه مثل ما أصابت العلوم الطبيعية، إنه لا يزال في المرحلة الوصفية ... فالانسان كل لا يتجزأ، وفي غاية التعقيد، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه، أو في أجزائه في وقت واحد، كما لاتوجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي" [٦٦].

* ونعتقد أن النتائج غير السوية التي انتهت إليها العلوم التي تدرس الانسان الداخلي - مجال علم النفس - وعلاقاته في المجتمع - مجال علم الاجتماع - لم تنشأ إلا تحت تأثير النظرة غير الصحيحة للإنسان. من ثم نرى أن هذين العلمين - علم النفس وعلم الاجتماع - لو درسا الانسان بطريقة تتفق مع طبيعته التي خلقه الله عليها وفي إطار رسالته في الحياة، لكانت لبحوثهما نتائج أخرى.

* فلو أن الدراسات النفسية والتربوية، وضعت أيديها على الأسباب الحقيقية وراء قلق الانسان واضطرابه، وتفشى الأمراض النفسية القاتلة بين الأفراد، وبخاصة في المجتمعات المتقدمة مادياً، لكان لتلك الدراسات نتائج مغايرة، إننا لا نريد لمثل هذه الدراسة أن تقف عند مجرد الوصف الذي يكون عليه الانسان في حالة انحرافه عن طريق الأسوياء، بل عليها أن تضع العلاج الصحيح الحقيقي والمناسب لهذه الظواهر، من خلال النظرة الصحيحة لكيان الإنسان، إن دعوى الباحثين في هذا الميدان بأن من طبيعة المنهج العلمي الحياد والموضوعية دون أن يلبس ثوب القديسين والمصلحين، تصبح باطلة، طالما أنها لم تقدم العلاج الصحيح للحالات المرضية، ثم من جانب آخر،

---

(٦٥) انظر: عباس محمود العقاد: كتاب "الله"، ص ٢٢٩٠، ط بيروت، المكتبة العصرية، بدون تاريخ.

(٦٦) الانسان ذلك المجهول، ص ١٦، مرجع سابق.

ماقيمة العلم إن لم يقدم نفعاً حقيقياً لبنى الإنسان ؟ .

* وهناك مسلمة لابد، من الأخذ بها، وهي أن جميع الدراسات المتصلة بالنفس الإنسانية، والتي نشأت في بيئة غير بيئتنا، لا نقر منها إلا ما نراه صحيحاً في ضوء مجموعة من الأبعاد المنبثقة من طبيعة الانسان الحقيقية وعلاقاته بالكون والحياة ومصيره وأهداف وجوده والغاية منه، هذه الأبعاد هي :

١ - الايمان الواثق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر، كمسلمات إيمانية، أتى بها النص القاطع، ولا يستطيع العلم القاصر أن ينفيها؛ لأنه إذا لم يكن في استطاعته أن يعلمها، فليس من حقه أن ينفيها، لأن عدم العلم ليس علماً بالعدم كما يقوم شيخ الاسلام "ابن تيمية" (٦٧).

٢ - طبيعة النفس الانسانية الخيرة، التي هي امتداد لروح الحق تبارك وتعالى، كما ترشد إليه الآية الكريمة في معرض الحديث عن آدم وطلب السجود له من الملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (٦٨).

٣ - استخلاف الله للإنسان على ظهر هذه الأرض وتسخير الكون له .

٤ - النظرة المتكاملة الشاملة لطبيعة الانسان، كما بينها خالقه سبحانه وتعالى .

٥ - البعد الأخلاقي ضرورة من أجل استقامة الحياة، ونظام الوجود .

٦ - الثقة بأن النمو الإنساني تحدده أربعة عوامل هي : العقل - الارادة - القدرة - المشروعية (٦٩).

* في ضوء هذه الأبعاد التي تشكل إطاراً للبحث في المجال النفسي، لا تقبل دعوى أولئك الذين يستبعدون قيام علم نفس إسلامي، بناء على أنه لا توجد قواعد وأسس منهجية لهذا العلم في الاسلام، ونبادر فنقول : ليست المسألة مسألة قواعد وأسس، فهذه كلها من اجتهاد الباحثين وسعيهم، وإنما العبرة بالمنطلقات الحقيقية لموضوع البحث، والاطار العام الذي يحدد مساره، وقد رأينا فيما سبق كيف أن في الإسلام تلك المنطلقات وهذا الاطار، ثم إن هناك رداً حاسماً على مثل هذه الاعتراضات، كيف استطاع أسلافنا من الفقهاء أن يستخرجوا الأحكام الشرعية من أدلتها الموجودة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، في ضوء الضوابط الموضوعية المعروفة في أصول الفقه؟

---

(٦٧) الرد على المنطقيين، ج ١، ص ٣٤٠، تحقيق صاحب البحث، ط القاهرة، ١٩٧٧ .

(٦٨) سورة الحجر : الآية ٢٩ .

(٦٩) د. محمد رفقي عيسى : نحو أسلمة علم النفس، المسلم المعاصر، ص ٤٠، العدد السادس والأربعون، يناير ١٩٨٦ .

ثم من جانب آخر : أليست هذه الأحكام ضوابط للسلوك الانساني، والتي لاتقوم إلا على إدراك ما لدى الإنسان من دوافع وغرائز؟ بلى !! إنها كذلك، ثم ما بال الرافضين لاينظرون إلى بعض الانجازات الممتازة في علم يتعلق بسلوك الانسان، وهو علم الأخلاق، بمنهج موضوعي، استخرج من نصوص الكتاب والسنة وأحكامها القواعد والأهداف التي تضبط السلوك الانساني، مع المقارنة الدقيقة بما أنجزه أساطين علوم التربية والنفس والأخلاق، دراسة ظهر منها أن القرآن الكريم والسنة الصحيحة، قد احتويا من قواعد السلوك الصحيح، الضامن لحياة البشر، ليكونوا سعداء، الكثير الذي تتضاءل أمامه منجزات هذا العلم كيفاً وحالاً وغاية ؟ إنه كتاب "دستور الأخلاق في القرآن الكريم" للعلامة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز.

* وما يقال عن علم النفس يقال كذلك عن علم الاجتماع، فإذا كان ذلك العلم يدرس المجتمعات البشرية في وقائعها وظواهرها وعلاقاتها ومعاملاتها الاجتماعية المختلفة، حيث تتحكم فيها قيم تؤدي إلى ألوان من السلوك الشائع المتكرر - أحياناً - حتى يصبح عادات راسخة أو سنناً مألوفة أو تقاليد موروثة، فإن هذا كله له دلالات في القرآن الكريم، في حديثه عن أقوام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما كانوا عليه من تقاليد وأعراف وعادات، وكيف كانت هذه الأمور عقبات في سبيل قبولهم للحق الذي جاءهم به أنبياؤهم، ومن خلال هذا كله نفهم الأسباب الحقيقية وراء سقوط الحضارات أو قيامها، والعوامل النفسية والاجتماعية التي تؤدي إلى ذلك، كما ترشد إليه الآيات الكريمات : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٠).

* إن القرآن الكريم وهو يقص علينا أخبار الأمم الغابرة، يعطينا إمكانية فهم السنن والقوانين الاجتماعية، التي تقوم عليها الاجتماعات الانسانية في حالاتها الايجابية والسلبية على السواء، وعوامل وأسباب استمرار حالاتها الايجابية، وعوامل وأسباب استمرار حالاتها السلبية، كما تشير إلى ذلك بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى :

---

(٧٠) سورة الأنفال : الآيات : ٥٠ - ٥٣.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧١) ، وهذه الآية جاءت عقب الحديث عما تم بين عدد من الأنبياء وبين أقوامهم، نوح، ابراهيم، لوط. شعيب، هود، صالح، موسى عليهم جميعاً وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

* وليس سياق القصص القرآني بمتخذ من سرد الوقائع والأحداث سبباً للمتعة واللذة، على غرار ما يهدف إليه القصص الفني، إنه يحمل قياساً عقلياً لكل ذي عقل، هو أن الأحوال المماثلة لدى اللاحقين لما كان عليه السابقون، إيجاباً أو سلباً، أو بلغة القرآن الكريم " إيماناً " أو " كفراً " ينطبق عليها ما حدث للغابرين، لاتحاد العلة، ولأن سنن الله لا تتخلف في الأوضاع العادية، من ثم يكون القصص " عبرة " ، قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٧٢) . وقد جاءت هذه الآية بعد أخرى أسبق منها وفي نفس السياق، تحمل العزاء لرسولنا الخاتم عليه الصلاة والسلام. لأن رهطاً من اخوانه الأنبياء، قد لاقوا من أقوامهم مثل ما لاقى، ومن ثم سيكون المصير للمعرضين عن الحق واحداً، قال سبحانه اطرادا لسنن الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾(٧٣) .

* هذه بعض الآيات التي يمكن أن تحمل دلالات اجتماعية، وغيرها كثير في هذا الميدان، فإذا انضم إليها أحاديث الرسول (ﷺ)، التي تتحدث عن العلاقات والنظم الاجتماعية في كل مجالات الحياة، وكذا ما في تراثنا من تجارب أسلافنا في رحلاتهم وما انتهت إليه آراء الباحثين منهم، وأخيراً : من اجتهادات المجتهدين في دائرة فهم النصوص الصحيحة فهماً منضبطاً مما له علاقة بموضوعنا. فهل يضيق هذا كله عن أن

---

(٧١) سورة العنكبوت : الآية ٤٠.

(٧٢) سورة يوسف : الآية ١١١ آخر السورة.

(٧٣) سورة يوسف : الآيتان ١٠٩ ، ١١٠.

يكـون اطاراً لـدراسات اجتماعيـة جادة ؟ الجواب لا ، متـى حسنت نيـاتنا وآمنـا بالفكـرة أولا وسعينا من أجل تحقيقها ثانياً .

وأخـــــيراً : الهـــــدف :

* وبعد هذا الاطار الذي يتغيا رسم صـورة عامة لمسار العمل في دوائر البحث العلمي كما ينبغي أن يكـون ، أكثر مـن كونـه دراسة تفصيليـة في علم بعينـه ، فإن الهدف مـن ذلك ينحصر في أمور هي :

أولاً : أن يكون لنـا منطلقاتنا في البحـث العلمي بكـل مجالاته ودوائره المنبثقة مـن بيئتنا ، والمرتبطة بتراثنـا الحضاري ، والضـامنة لنتائج صحيحـة في كل مجال ، متـى أخذ البحث العلمي بالمنهج الصحيح .

ثـانياً : أن يكـون لنـا استقـلالنا العلمـي والفكـري ، وألا ننسـاق وراء إفرازات البيئـات الأخرى العلمية ، إلا اذا بلغت مبلغ القوانين العلمية ، أو لا تصطدم مع عقائدنا ومقدساتنا .

ثالثـاً : الا نعتاق من نظريـة " رد الفعل " التي نتعـامل بها ، حين نقف من نتـائج البحث العلمي عنـد غيرنا ، مـوقف المقـرر لها إن كانـت صحيحة أو الـراد لها إن كانـت بخلاف ذلك .

رابعـاً : السعى المخلـص إلى ايجاد نـوع جديـد مـن الدراسـة ، تنتهـج المنهج الصحيـح ، تكون أساساً لما ينبغي أن تكون عليه الدراسة ، في حدود العلاقات الصحيحة لله الخالـق ، بالكـون المخلـوق وإبـراز الدور الحقيقـي لـلإنسـان ورسالتـه في هـذا الوجود .

خامساً : أن تنحسر مـن واقعنا العلمي تلك الثنـائية ، التي لازلنا نعـاني منها ، والمبنية على عدم الفهم الصحيح للاسلام ، والمفهوم الحقيقي للعلم في دائرته .

سادساً : التخفيف المتدرج بواسطة ما يفرزه منهجنا من حقائق علمية صحيحة عن انسان هذا العصر مما يعانيه من شقاء، نتيجة استدباره لمنهج الله خالق الكون والحياة والانسان، لنحقق بذلك المعنى الحقيقي لرسالة الاسلام العالمية، والمنبثقة من قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٧٤) .

صدق الله العظيم .

والله من وراء القصد، يقول الحق وهو يهدي السبيل .

(٧٤) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .